مناقشة محاضرة الأستاذ نعيمة

الأدب والحرية المسؤولة

بقلم رشيف خوري

سيعفيني الاستاذ ميخائيل نعيمة ، ويعفيني كذلك حضرات السادة والاعضاء ، من ان اصور المنزلة التي يحتلها اديبنا الكبير في قلبي وفي قلوبنا جميعاً على ما اقدر واوقن يقيناً .

وسأجتهد على بعد الشقة بيني وبين الفيلسوف الاغريقي العظيم ان لا يكون موقفي من الاستاذ نعيمة غير موقف ارسطو من معلمه افلاطون اذ قال ارسطو : افلاطون صديقي ولكني ايضاً صديق الحق وبقدر اوفر !

واني لا يخطر لي قط ببال ان يكون الاستاذ نعيمة قد شاء ان يسد علينا الطريق حين قال : ان ناقد نفسه بغنى عن نقد الناس له . فمحاضرة الاستاذ نعيمة لم تخرج عن ان تكون نقداً من النقد . ولا احب في الادباء المحاضرين من يقول : كفاني اني ناقد نفسي واني كنت بغنى عن هذه المحاضرة . فلقد افدنا خيراً من محاضرة الاستاذ نعيمة في الحالتين . افدنا خيراً حين ادى لنا ببيان جزل جميل حقائق نقره عليها . وافدنا خيراً حين عرض علينا افكاراً نجد فيها المجال متسعاً لمناقشته ومخاصمته الخصومة الشريفة التي لا محل لسواها بين الادباء .

يبدو لي ان الاستاذ نعيمة حائر في امر النقد هذا وفي امر الناقدين . فطوراً هو يعظم من امر النقد والناقدين حين يذكر تين الفرنسي وبيلنسكي الروسي واعلاماً غيرهما ، وحين يؤكد لنا ان من آثار النقد ما قد ارتفع الى مرتبة الخلق الفني الرائع ، وتارة هو يضائل من امر النقد والناقدين حتى ليكاد ينكر فضل هؤلاء ويجعلهم كالدجاجة التي تقوقي كلما باضت رفيقتها ويدعوهم الى الشغل بانفسهم والى الانتاج الادبي وترك سواهم وشأنه .

وليس يخالف احد الاستاذ نعيمة في ان ثمة نقداً وآخر . ثمة نقد مصيب عميق ونقد خاطئ سطحي . ثمة نقد نزيه ونقد خسيس . ولكن اليس ذلك شأن الأشياء جميعها ان تقع في اصناف تتفاوت من جيدة تبلغ الدرجة القصوى في نفاستها وتافهة تنحط الى الدركة الدنيا ؟

وهل بوسع الاستاذ ان ينكر ان النقد العربي الحديث سواء منه ما اتصل بتقييم التراث العربي القديم او بتعريف روائع الآثار الغربية وتحليلها قد اسهم بحظ مرموق في حركات التحرر والانطلاق التي خضع لها الأدب العربي الحديث ؟ الم يسهم كتاب طه حسين « الادب الجاهلي » في تحرير فكرنا من نظرة التصديق والتقديس المطلقة لكل ما نقل الينا عن السلف الصالح الذي نكبره ، وينبغي لنا ان نكبره ، مع عرفاننا بقصور الحدود والآفاق التي كانت له ، عن الحدود الآفاق التي تطالعنا في عصرنا ؟ الم يسهم كتاب الاستاذ نعيمة نفسه « الغربال » في صرف الكثير من ادبائنا المحدثين عن المعاني والقوالب التي اصبحت في عصرنا محنطات ميتة ؟ بلى !

ولئن كان صحيحاً ان النقاد مجتمعين جميعاً لم يؤتوا القدرة على ان يخلقوا متنبياً واحداً او شكسبيراً واحداً ، فصحيح ايضاً ان المتنبي نفسه وشكسبير نفسه وعظائم الشعراء كلهم اعجز من ان يخلقوا متنبياً آخر او شكسبير آخر . وكذلك يبقى صحيحاً ان الموهبة الادبية التي هي سر من الأسرار ، والتي اعطيت للناس وللادباء انفسهم على اقدار متفاوتة ، لا تتجلى حق تجليها ولا يشرق جوهرها الا اذا حكها وشحذها وصقلها النقاد حتى المتحاملون منهم . وتاريخ الادب حافل بالشعراء والكتاب الذين كشف النقاد لانفسهم عن انفسهم فوجهوهم الى الخلق الادبي الذي يجيدون ، او استفزوهم بتحاملهم الى الاجادة والابداع في ما يكتبون وينظمون . احسب الاستاذ نعيمة ان لم يكن فضل لنقاد المتنبي على المتنبي نفسه في حفزه الى حشد قواه المبدعة للتحليق في الكثرة الكثيرة

من قصائده؟ احسب الاستاذ نعيمة ان لم يكن مثل هذا الفضل لنقاد شوقي على شوقي نفسه ؟ فشوقي الذي انتقده الاستاذ نعيمة لذلك المنوال التقليدي الذي نسج عليه قصيدته بعد عودته من الاندلس : « انادي الربع لو ملك الجوابا » هو نفسه الذي اصبح يقول في قصيدته « مصاير الايام » يصف الصغار في غدوهم ورواحهم الى المدرسة :

يراح ويغدى بهم كالقطيع على مشرق الشمس والمغرب
الى مرتع الفوا غيره وراع غريب العصا اجنبي
وتلك الاواعي بايمانهم حقائب فيها الغد المختبي !

وهو شوقي نفسه الذي اصبح يقول في القصيدة نفسها يصف ساعة المدرسة الدقاقة :

يدق بمطرقتيها القضاء وتجري المقادير في اللولب !

فاذا لم يكن هذا هو الابداع ، فدلونا على الابداع !واذا لم يكن شوقي قد صار الى هذا الابداع بحوافز منها النقد فقولوا لنابأي حافز اذاً، تطورت عبقريته واشتعلت خصائصها الكامنة وسمت الى تلك الذروة ؟

انا سمعنا بكثير من اعمال يقدم عليها البشر ليجعلوها خاتمة اعمال من نوعها ضاقوا بها ذرعاً لكثرة ما طال عليها الأمد . سمعنا بانتخابات تجري لانهاء جميع الانتخابات ، ومؤتمر يعقد لانهاء جميع المؤتمرات . وكأني بالاستاذ نعيمة يأتينا اليوم بمحاضرة في النقد لانهاء جميع النقد الا ماسماه نقد الذات كأن نقد الغير ونقد الذات عملان لا يتصلان اوثق اتصال ولا يرجع واحدهما الى الآخر ! ولكن النقد سيستمر ، كما ستتكرر الانتخابات والمؤتمرات ، جعلها الله جميعاً اكثر جدوى !

على ان هذا المأخذ على موقف الاستاذ نعيمة ربما كان طفيفاً اذا قيس بمأخذ اساسي وهو قبوله هذا التفريق القاطع بين النقد والادب ، فالنقد هو ايضاً ادب من الادب . وحكم النقاد لا يختلف عن حكم الادباء في ان بعضهم مبدعون وبعضهم سخفاء وسيظل فيهم السخفاء والمبدعون . كل ما في الأمر ان النقد فرع خاص من فروع الادب . النقد لا يعدو ان يكون ادباً يتخذ من الادب نفسه موضوعه !

غير ان ثمة مأخذاً آخر ينبغي لنا ان نقف عنده طويلا فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين من شأن النقد والناقدين انما يعتمد على فلسفة ، ليؤذن لي ان اصفها بالمائعة . فلسفة يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج خاطئة بليغة الضرر . تلك هي الفلسفة « الليبرالية » المحض ، وادعوها بالعربية « الاصطفالية » (١) وهي تستند على ان هذه القيم التي نسميها الحق والخير والجمال قيم متحولة متبدلة في العصور عدا انها في كل عصر وبيئة تختلف مفاهيمها بل تتضارب نسبة حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون النتيجة ان ليس في الواقع من حق ولا خير ولا جمال ترسم حدودها واضحة معينة لا شية فيها . وبالتالي ليس في الواقع من نقد بوسعه ان يدعي انه يصدر عن هذه القيم قيم الحق والخير والجمال .. كلا ، ايها السادة ! ان اختلاف الناس بل تضاربهم في تعيين قيم الحق والخير والجمال لا ينفي وجود هذه القيم ، ولا امكان معرفتها .وتوضيح معالمها في عصر من العصور بالتجربة والبحث البشريين ، وبالتالي لا ينفي امكان النقد الذي يستمده من هذه القيم ويستند عليها . كل ما في الأمر ان النقد نفسه ينبغي له ان يخضع بدوره للنقد . يصدق هذا على النقد الذاتي ايضاً . فانه كغيره من النقد هدف للخطأ وعرضة لان ينطوي على ادعاء وتدجيل ولأن يكون مسكنة كاذبة وسبيلا الى الشهرة الرخيصة. ولذلك نوافق الاستاذ نعيمة على ان الناقد — ولا سيما — اذا صدر في نقده عن مجرد فرديته فما ينبغي له ان يتشبث ويدعي ان قوله هو الكلمة الفصل والكلمة الاخيرة . ما ينبغي له ان يتشبث حتى لو كان ينقد نقداً ذاتياً ، وليست تصح في كل الاحوال حتى دعواه انه اعرف بنفسه . ولكن مع هذا يبقى صحيحاً ان العقل البشري قادر على ادراك قيم الحق والخير والجمال وان نقداً يستقي من هذه القيم انما هو في طوق القدرة البشرية فاذا وجد هذا النقد ، وهو ممكن الوجود ، وجلا الحقيقة وجلاؤها ممكن ، فلا يبقى مجال للرأي الفردي الخاص . خذوا مثلا قصة استقلال الشعوب وحريتها وحقها في العدالة الاجتماعية وفي التصرف بمقدراتها الوطنية . اهذه مجرد رأى ام هي حقيقة لا يأتيها الباطل من خلفها ولا بين يديها ؟ فاذا وجد اديب يجادل في هذه الحقيقة ، اذا وجد كاتب — لا اذن الله — يناقش في حق مصر ان تؤمم قناة السويس او في حق العرب ان يتسلموا مقدراتهم بايديهم وان يبنوا لانفسهم الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية والوحدة وشكل الوحدة التي ينشدون ، وانبرى ناقد يقول لهذا الاديب انت على ضلال ! فما اعتقد ان بوسعنا ان نقول لهذا الناقد : هذا رأي تراه .

(١) من قول العوام : اصطفل ، أي : افعل ما تشاء فحبلك ملقى على غاربك !

ولكل انسان الحق في ان يرى الرأي الذي يشاء، وكلمتناليست هي الاخيرة كما ان كلمتك ليست هي الأخيرة . اي موقف مائع يكون مثل هذا الموقف ؟

وهنا موضع التنويه بأمر ذكرت الاستاذ نعيمة . وهو ان الناس لا تختلف عندهم مفاهيم الحق والخير والجمال بمحض التصور والاعتقاد والظن والتقدير ، بل تختلف كذلكباختلاف المصالح المادية ، ومن هذه المصالح ما يكون اساسه الحق ومنها ما يكون اساسه العدوان . وهذا ما يبينه النقد والا فمن منا يصدق ان الذين يجادلون مصر في حقها ان تؤمم القناة غير عالمين ومقتنعين في صميمهم بانهم على باطل، ولكن مصالحهم التي تقوم على العدوان هي التي تدفعهم الى السفسطة وتلبيس باطلهم لباساً من « الحق » اشف واوهى من نسيج العنكبوت .

ايها السادة والاعضاء : اوصانا الاستاذ نعيمة في ليبراليته واصطفاليته ان لا نتحمس لمفاهيمنا عن الحق والخير والجمال الى حد لا نترك معه مجالا لسواها ، واقول : بل ان ابسط موجبات الحياة تقضي علينا بهذه الحماسة . وعقيم هو الشعب الذي لا توجد فيه مثل هذه الحماسة ولا الشهداء في سبيلها .

وامر آخر يصدر عنه الاستاذ نعيمة يقوده الى الخطأ المبين ، وهو اغفاله التفريق السوي بين النقد الانساني وما سماه نقد الحياة ونقد الطبيعة . اما نقد الحياة فلا نعرف له وجهاً الا ان يكون هو النقد الانساني . ذلك بان الحياة اذا انتقدت ذاتها بذاتها كما يقول الاستاذ نعيمة فهي انما تفعل ذلك بوساطة الانسان ذي الحس والارادة والتميز والتصرف والاختراع والاختيار . واما الطبيعة فلا يصح القول بان لها ملكة النقد الا على سبيل التعبير المجازي ان شئنا . ذلك بان الطبيعة غافلة ، وتصرفاتها تلقاء الانسان قاسية وخبيثةفي احيان كثيرة ، او هي حيادية لامبالية في احسن الاحوال . والذي قاله الاستاذ نعيمة من ان الانسان قد لا يكون عند الطبيعة افضل من بعض حشراتها ، هذا القول بالذات دليل على ان هذه الطبيعة غبية . والا فهم ننعت هذه الطبيعة التي تأذن لبرغشة مثلا ان تلسع شكسبيراً او متنبياً فتقتلها بما تدس فيهما من فتاك الجراثيم . والاستاذ نعيمة الذي استدرك بان الانسان لا يعيش في الطبيعة كنقطة في بحر او عشبة في مرج او ضفدع في مستنقع قد سها عن متابعة هذه الفكرة الصحيحة الى نتيجتها المنطقية الصحيحة . ولذلك اولع بانتقاء التشابيهمن الطبيعة، جمادهـا وحيوانها،واطلاق تلك التشابيه على الشؤون المتصلة بالانسان. مع ان التشابيه قد اذن بها في التعبير لتقريب الافكار لا لتصبح حججاً تثبت صحة هذه الافكار . والا فللمستعمر ان يقول لنا مثلا : ان القطة تفترس العصفور ، والذئب يلتهم الشاة ، ومن النمل من يسخر نملا غيره لاجتلاب رزقه ، ولذلك كان من الطبيعي ان يسخر المستعمرون من يستضعفون من الشعوب . كلا ، لا يصح مثل هذا المنطق . لايصح بالمقياس الانساني ان نقول ان الطبيعة تتمتع بملكة النقد . بل الصحيح الذي لا صحيح غيره ان ملكة النقدخاصية انسانية وحسب . وموقف الانسان من الطبيعة التي تكتنفه ويتواشج واياها ، ان يمزق باقتداره حجبهاعن اسرارها ، ويتحدى غباوتها بعقله ، ويسخر ما قد حوت هي ذاتهامن طاقة ووسيلة في سبيل اخضاع هذه الطبيعة لخدمته وسعادته . موقف الطبيعة من الانسان هو ان ينتقدها ، ويعيد تنظيمها تنظيماً عقلانياً افضل في نطاق امكاناته وامكاناتها .

ونخشى الاستاذ نعيمة اننا لو كانت لكل منا الحرية والسلطان ان يطبق على الطبيعة مقاييسه الخاصة في الحق والخير والجمال لبدأنا بابادة الحشرات التي تزعجنا جميعاً فقتلنا البرغش والدود وانتهت بنا هذه المجزرة — والعياذ بالله — الى افناء جميع من يخالفنا في الرأي . كلا يا سيدي الاستاذ ! والذين يسوون بين النظرة الى الطبيعة والنظرة الى البشر هم الذين يتورطون في هذا المنطق . ولتسمح لي انه مضحك . فنحن لا نقتل البرغش والدود وسائر الحشرات لأن ذلك شيء يتصل بالصراع حول الحق والخير والجمال ، او لأن هذه الحشرات ترى رأياً تخالفنا فيه، حتى نخشى ان ننتهي من هذا العمل بتسلسل منطقي الى قتل بعضنا بعضاً . وانه لآخر علمنا ان للدود والبرغش صلة بقضايا الحق والخير والجمال والآراء والمذاهب ! يستطيع البشر يا سيدي الاستاذ ان يبيدوا البرغش كله والحشرات المؤذية ويسخروا الطبيعة حتى الشمس نفسها ، هذه التي تشرق كما تقول على الاخيار والاشرار معاً ، لانها خلق غبي ، ثم لاخوف على البشر من ان يأخذ بعض لهذه العلة بخناق بعض . على ان سيادة البشر على الطبيعة لن تتم الا اذا تم تحكمهم في نظمهم الاجتماعية فجعلوها نظماً افضل واشد وعياً تنعم فيها الحرية والعدالة لجميع الشعوب والافراد ويلغى

فيها استبداد الانسان بالانسان ، لان النظم الفاسدة هي التي توقع هذا التناحر الذي تخشاه بين البشر ، وهي التي تهدد الكثير من جهودهم المبدعة وتصرف الاقوام عن ان يتكاتفوا جميعاً ضمن نطاق استقلالهم وكرامتهم لاتمام قهر الطبيعة.

✻

اخواني الاعضاء :

اني ابعد الناس عن مذهب اخضاع الاديب لتلقين او تقنين فكري تفرضها عليه الدولة او يفرضها عليه الناقد . مع اني اجد فرقاً بعيداً بين الدولة والناقد . فالدولة تستطيع بما اوتيت من وسائل ان تمارس العنف في حق الاديب لانها لا ترضى عن ادبه ، وهذا مالا يصح ولا يجوز ، بينما الناقد لم يؤت من الوسائل الا الوسائل الادبية نفسها ، يرد على القلم بقلم مثله ، وعلى الفكر بفكر مثله ويعتمد على البرهان والاقناع ، وهذا جائز بل واجب حتم . ولقد سبق ان جعلت الناقد مجرد اديب ، الا انه يتخذ موضوعه من الادب نفسه .

فمن الضروري هنا ان ننوه بفرق آخر خطير ، وهو ان الاديب قد يقدم على عمله الادبي وهو يتصور انه غير محمول عليه الا بدافع نفسه وتلبية حاجته الى التعبير واخراج ما في صدره ، وهذا يعني ان الاديب قد لا يستشعر في عمله الادبي ، هذه الحقيقة الراهنة وهي ان الادب يمتد الى ما وراء نفس الاديب ليتصل باصول وجذور اجتماعية وسياسية واوضاع قومية ووطنية وعالمية لامعدى له عن ان يتأثر بها واعياً او غير واع . فللناقد هنا عمل خاص ، وهو ان يكشف للاديب نفسه وللقراء تلك الصلات الخفية البعيدة بين ادب الاديب وعصره ومجتمعه وشعبه ووطنه ، ففي ذلك انارة للاديب وتمكين له من ان يضع ادبه على ضوء رسالته .

اما هذه الرسالة التي نريدها اليوم فهي رسالة الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية وجمع الشمل للشعوب العربية .

قولوا لي اي رسالة هي اشرف ؟

بقي ان ننتقل من تعيين هذه الغاية الكبرى العامة الى مرحلة اخرى هي الدخول في الدقائق والتفاصيل ، وفي اطلاق النشاط الادبي وتشقيق الفنون الأدبية التي نرى انها تخدم رسالتنا خدمة امينة لائقة بشرف الفكر والعلم .

رئيف خوري

مكتبات انطوان

فرع شارع الأمير بشير – بيروت

ص. ب ٦٥٦ – تلفون ٢٧٦٨٢

تختار لكم آخر المطبوعات القيمة التي صدرت عن دور النشر العربية :

الياس ابو شبكه وشعره	رزوق فرج رزوق
النكبة ١٩٤٧ – ١٩٥٢ ونكبة بيت المقدس والفردوس المفقود	عارف العارف
قصائد	نزار قباني
من حضارتنا	جورج عطيه
تاريخ احمد باشا الجزار	الامير حيدر احمد شهاب
الروم وصلاتهم بالعرب (جزءان)	الدكتور اسد رستم
المسرحية في الأدب العربي الحديث	: الدكتور محمد يوسف نجم
تاريخ اسبانيا الاسلامية	ليفي بروفنسال
دليل مراحل تاريخ لبنان	سليم ارسايبوس
النكبة والبناء	وليد قمحاوي
اسمع يا رضا	الدكتور انيس فريحه
اسماء المدن والقرى اللبنانية	〃 〃 〃
الدمع المر	الدكتور سهيل ادريس
معالم الحياة العربية الجديدة	الدكتور منيف الرزاز
قضاء الأحداث علماً وعملاً	سعيد بسيسو
من واقع السياسة العراقية	الدكتور محمد فاضل الجمالي
بين الديانات والحضارات	طه المدور
بين الوطنية والطائفية	يوسف السودا

اوراق لبنانيه (مجموعة السنة الأولى مجلدة)

●

لجنة التأليف المدرسي

تقدم لكم افضل المنشورات المدرسية وفيها معظم مواد المنهج الابتدائي . اما للصفوف الثانوية فتقدم :

التعريف في الأدب العربي — **رئيف خوري**

(في ثلاثة اجزاء)